انكفاء

قصة قصيرة

تأليف

حسين السنبختي

انكفـــاء

قصة قصيرة

تأليف

حسين السنبختي

لَيْتَها كانت عادةً أستطيع أنْ أنْفَضَّ عنها وتنْفَضَّ عنّي، أوْ يا ليت بمقدوري أنْ أستعيض عنها بغيرها، مثلما تمكنت مؤخرًا وأخيرًا من التوقف عن احتساء القهوة والإقلاع عن التدخين، وصِرت أشرب العرقسوس والحشيش. وبعدما كنت أُعَبِّئ مَعِدتي المُضطربة بثلاثة أكوابٍ من القهوة، وأنْفُخ رِئتَي المُتَهَيِّجَتَيْن بدخان عُلْبَتَي سجائرَ يوميًّا؛ أصبحْتُ الآن أشرب كوبًا من العِرْقسُوس اللذيذ من أشهرِ محلِ عصائرَ في أثناء توجهي إلى عملي بالمدرسة كُلّ يومٍ في الصباح. وفي نهاية كُلِّ أسبوعٍ، أُرسِل ابني الأكبر أمجد ذا التسع سنوات -بعد أن أُعَنِّفه وأتَوَعَّده وأُشَدِّد عليه بالتركيز والانتباه- ليُحْضِرَ إلى البيت كيسًا من مشروب العِرْقسُوس يكفي ثلاثتنا؛ أنا وهو، وأخيه الأصغر مجدي، صغيري القوي النبيه، الذي أُرسِله بدوره مع المال وكلمة السر لينتظر على ناصية الحارة من أجل أن يستلم ويُحضِر لي ربعَ إصبعٍ من الحشيش اللين، الذي أطلبه تليفونيًّا؛ فَيَصِل إلى حيث أسكن، ولا يُكلِّفني أكثر من خمسين جنيهًا، وأُحَضِّره عن طريق غليه مع الماء الفاتر على نارٍ هادئةٍ في الكنكة التي كنت أستخدمها لإعداد القهوة، ثم أُضيفه إلى كوبِ العرقسوس الخاص بي، ومن ثَمَّ أحتسيه. وبينما يجتمع ثلاثتنا على المشروب

الأصيل، وأختصّ أنا بالانتشاء والابتهاج والتحليق؛ أجِدُ نفسي في أفضل تجلِّيَّاتي المهنية كمعلمٍ لمادة التاريخ، أصير فجأةً مُحِبًّا للشيء الذي لطالما فعلته بتململٍ وكُرهٍ، وأُصبِحُ مُقبِلاً على الشرح بانشراحٍ وانفتاحٍ، بخلاف حالتي وأنا في حِصّةٍ مدرسيّةٍ بغيضةٍ. بل إنني أشعر بنفسي مُنتصِبًا باستقامةٍ دون أدنى انحناءةٍ تُذكر، وكأنني تمثالٌ لزعيمٍ تاريخيٍّ منصوبٌ ومُنتَصبٌ في مَيْدانٍ عامٍ؛ فأشرح وأخطب وأحكي لولدَي بتفصيلٍ وتمثيلٍ وتمجيدٍ وتبجيلٍ عن أمجاد الوطن وانتصاراته المدهشة عبر تاريخه الممتد الطويل، عن قداسة طينه، وعراقة نيله. عن قُدُوَّة شعبه، وكرامة فرده. إلا أنها للأسف ليست عادةً أو سلوكًا اكتسبته بإرادتي؛ فتلك اللحظات المُبهجة -على مرورها البطيء- سُرعان ما تنتهي بمجرد أن أستيقظ من نومي في اليوم التالي، لأجدني مُطأطِئ الرأس، مُنحني الظهر، وترافقني وتلتصق بي -بل وتعانقني من الخلف- تلك العِلَّة التي لا فُكاك منها على ما يبدو، وكأنها صَدَفَةٌ سلحفاةٍ، أو قوقعةٌ حَلَزونٍ.

كم أتمنى لو أتحرَّر من هذا الاحدوداب الذي لازمني منذ اليوم الذي انكفأت فيه على جسد زوجتي المُنتقِع في بَرْدٍ وشحوبٍ ودماءٍ باكيًا مُتحسِّرًا حين ماتت وهي تلد ابني الأصغر مجدي إثر نزيفٍ حادٍ فاقمه فقرٌ مزمنٌ في دمها، كانت ولادةً غيرَ طبيعيةٍ عَسيرةً بسبب وضع مجدي

المقلوب، وهُزال صحة زوجتي وبُرْئها المسلوب، ولكنّ الأطباء استطاعوا بواسطة جراحةٍ قيصريةٍ إجبار مجدي على الخروج قبل موعده، وما استطاعوا إنقاذ زوجتي من نزيفٍ وهبوطٍ حادٍ في دورتها الدموية، وتوقف قلبها عن النبض وضخ الدماء في جسدها المُنهَك الضعيف.

لكَم أخبرتني زوجتي أنّ هذا الحمل لم يكن له حاجة، وأنّه كان لزامًا علينا قبل أنْ نفكر في طفلٍ جديدٍ الاهتمامُ بابننا الأكبر أمجد المريض، ولربما الاكتفاء به، لكنني كنت أريد طفلاً يعوضنا الله به عن أمجدَ الذي كان عمره يقارب السنتين والنصف وقت ولادة أخيه، وكنت أراه بسبب مرضه ينطفئ يومًا بعد يومٍ بعكس أمه التي كانت تحبه وتراه أملها الكبير، إلاّ أنني رأيت الأمل والتعويض الحقيقي سريعًا في مجدي؛ كان هبةً من الله وولدًا سابقًا سنه بحقٍ، كان قويًّا ذكيًّا يتمتع بمهاراتٍ مُدهشةٍ ولياقةٍ رياضيةٍ مُبهرةٍ، كان منذ صغره يجيد التسلق والتشقلب بشجاعةٍ وإقدامٍ دون خوفٍ أو خطأٍ، حتى أنّه لاحقًا قد حدث معه ما لم يحدث مع أحدٍ من ذويه من قبل؛ فقد قُبِل جرّاء ما يملك من مقومات البطولة وسلامة السمات الشخصية وقياساته النفسية، ولاجتيازه المُبهِر للاختبارات الرياضية.. قُبِلَ في المدرسة العسكرية الرياضية الابتدائية! قَبلوه بكل

ترحيبٍ وتشجيعٍ وألحقوه مباشرةً بالصف الخامس الابتدائي حيث يبدأ قبول الطلبة من هذا الصف بحسب القوانين وقتها، رغم أنّه طبقًا لسنِّه كان في الصف الثالث الابتدائي، كانت تلك الترقية مثابةً لي ولدور مجدي في حياتي وبُشرى، ترقيةٌ استثنائيةٌ غيرُ مسبوقةٍ، وكأنّه يُجَهِّز لشأنٍ كبيرٍ. أتساءل؛ هل كانت زوجتي لتعيش لو لم يأتِ مجدي! مع كُلّ أسفٍ وألمٍ عَلِمت أنّ زوجتي كانت مخطئةً فيما يتعلق بالاكتفاء بأمجدَ والاهتمام به، فما كان ذلك مُنقِذه ومُنَجِّيه من مصيره، ولا منجيني من وحدةٍ كنت سأتجرع مرارتها إنْ لَم يكن هناك مجدي، فما حدث لأمجدَ جلب عليّ مزيدًا من انكفاءٍ، وزاد ظهري انحناءً على انحناءٍ؛ يومٌ مشؤومٌ آخرُ فُجِعت فيه في ابني الكبير أمجدَ؛ حين سقط عليه جدارٌ مُتهالكٌ في مدرسته الأهلية القديمة، ونقلوه على إثر ذلك إلى المستشفى في عربةٍ «كارو» بسبب رفض «التكاتك» والسيارات نقله نازفًا وبعد أن تأخر الإسعاف كثيرًا، وحين عَلِمْت بالخبر وذهبت إلى المستشفى، كان قد مات، فارق الحياة وفارقني قبل وصولي؛ انكفأت على جسده الضعيف المُغرَق في دمائه أبكي بعويلٍ مكتومٍ، وأُلومه بقلبٍ مهزومٍ على فقدانه انتباهه وتشتته المزموم الذي تفاقم واستحكم منذ لحظة ولادة أخيه حتى صار تائهًا لا يَفْطِن ولا يُدْرِك وكأنّ وجوده معدوم، إنه الآن غير موجودٍ،

إنه الآن ذِكرى. وصلني فيما بعد أن إحدى الممرضات المتعاطفات قد قالت أن نقصًا في بعض الأدوات الطبية كان سببًا في عدم استطاعة الأطباء إنقاذ حياته، كان يحتاج إلى أُنبوبِ تنفسٍ ثمنه خمسين جنيهًا ليوفر له ممرًا هوائيًا بديلاً من خلال شق فَغرٍ في قصبته الهوائية، ولكنه كان غير موجودٍ بالمستشفى، لم يُكلّف أحدٌ نفسَه عناءَ وثمنَ شرائه من أجل إنقاذ طفلي، لم يكترث أحدٌ لحياة طفلي أمجد.

كلّفني هذا الحادث المرير ثمنَ طلب الحشيش كُلّ يومٍ ولمدة أسبوعٍ كاملٍ، وجلوسًا يوميًا مع ولدِي الأصغر مجدي بالتزامن مع شرب العرقسوس والحشيش وتكثيف الدروس عن ازدهار وبناء الوطن والتضحيات الثمينة من أجله، استطعت أن أشرح لولدِي -بينما أنحني عليه وأحتضنه وتنسكب عليه دموعي- أن موتَ أخيه أحدُ تلك التضحيات التي تلفت نظر الوطن إلى الأخطاء والمشاكل ليتفاداها في المرة القادمة ويحفظ حياة الآخرين، لقد عَلِم أن أخيه قد مات من أجل الوطن ومن أجله؛ فبعد ما حدث، لا سورَ متهدمٌ سيقع عليه مثلما حدث مع أخيه؛ حتمًا سينتبه المسؤول بسبب الحادث لكُلِّ سورٍ وكُلِّ جدارٍ يريد أنْ ينقض فيقيمه.

إلا أنني بعد موت أمجد لَمْ أستطع أن أُقيم ظهري من حينها أبدًا، كنت

أمشي مُكِبًّا على وجهي أنظر رغمًا عني إلى الأرض، وكأنّ وجهي يتوق إلى أن يتعفَّر أو يتمرغ فيها مُرتقِبًا أيّ انكفاءةٍ، أو كأنني في وضعية ركوعٍ وعلى وشك السجود، رضخت واعتدت سريعًا على هذا الاحدوداب العنيد، وتكيَّفْت معه حتى صِرت أستخدم ظهري في أنْ أضع عليه حقيبة يدي والكتب والأقلام وكراسات التحضير في أثناء ذهابي إلى المدرسة وفي أثناء شرحي، عِوَضًا عن يدي التي تكاد تلامس الأرض ولا تصلح لحمل شيءٍ.

وحين قدم الشتاء واشتد؛ تذوقت طعم الطين، واضطررت إلى أن أستدين بمبلغٍ وقَّر لي الحشيش لمدة شهرٍ كاملٍ، على حسب ما أتذكر، واضطررت إلى تعلم تحضير مشروب العرقسوس منزليًّا عن طريق نقع المسحوق الجاهز بعد وضعه في مِصفاته الخاصة في الماء لسويعات، وجلست وحيدًا في البيت كُلّ تلك المدة أشرب الحشيش والعرقسوس بينما أقرأ وأُذكِّر نفسي بما أُعَلِّمه وأعْلَمه عن نهضة الأوطان وإنجازاتها التي حتمًا سوف يكون لها مردودها على المدى القريب، أو البعيد. كان وقتٌ مُشَبَّعٌ بالحزن والكآبة وأنا أقبع مُنفرِدًا ومُنزويًّا أنتحب بحرقةٍ وأصرخ بصخبٍ وأبكي بمرارٍ، وإحساسٌ طاغٍ بضياعٍ واحتضارٍ يحاصرني ويعتصر قلبي وكأنه على وشك الانفجار، بينما أفتقد ولدَي الاثنين بعد أن

راح ولدِي الأخير مجدي؛ استند على -أو حاول تسلق كما ادَّعَوا- عمود الإنارة بناصية الشارع في أثناء عودته من مدرسته في يومٍ عاصفٍ كثيفِ المطر والغَمام؛ فصعقته الكهرباء وأرْدته مَصروعًا في ثوانٍ، وحين حَضَرت كان مَتروكًا على الأرض مُغطًى بالطين ومُحاطًا بزمرةً من الجُبَناء؛ انكفأت عليه انكفاءةً علمت أنني لن أقوم بعدها أبدًا، ورُحت أتشنج مُتمرِّغًا في الأرض المُلتَطَّة بالأوحال والمياه المُتسِخة، أتَصَرَّخ وأتَلطَّخ، وكمُغْرَقٍ أتَجَرَّع الطين فأبْصُق وأتَمَخَّط وأتَقَيَّأ، ولم يتجرَّأ أحدٌ أن يقترب مني لظنهم أنّ الماس الكهربائي قد عاد مجددًا وطالني رغم فصلهم التيار، لَمْ يتجرَّأ أحدٌ أنْ يَتَمَرَّأ في مثل هذا اليوم ويسكت عن أنْ يَتَبَرَّأ بكلماته الجوفاء من أفعال التشقلب والتسلق في الشتاء من قِبَل الصِغار الأشقياء، كما تَهَرَّأ عقل هؤلاء الضُعفاء في وصف ابني البطل بِكُرْهٍ دفينٍ وازدراءٍ.

لكنني بفضل مداومتي على مشروبي المجيد، وبعد أيامٍ قليلةٍ وجدت نفسي قد بدأت تدريجيًّا نسيان الحزن وسببه، وبعدها نسيت كُلَّ شيءٍ، حتى أنني لم أعُدْ أتذكر درسًا واحدًا من دروس التاريخ التي كنت أُتْقِنها وأُلَقِّنها، ثم وجدتني في الشارع بلا مأوًى أو عملٍ أو ذاكرةٍ؛ أسأل الناس باستمرار عن اسمي فيجيبونني بأنه «عبد المجيد»، وسرعان ما أنساه

وأعاود سؤالهم مْستغربًا ومُستغرَبًا.

وتأخذني يداي وقدماي إلى مكان مسكني فإذا به حُطامٌ ورُكامٌ؛ أسأل الجيران مفجوعًا، يتقزز جُلهم مني، وينفر بعضهم عني، ويجيبني آخرون باشمئزازٍ واحترازٍ أنّ مالك البيت قد هدمه بأمرِ إزالةٍ قانونيٍّ بعدما طردني وباقي الساكنين بقوةٍ جبريةٍ مُقسِمًا بقوته ونفوذه ألا يُرفَع حطامٌ أو يُنهَض ببناءٍ إلا بعد أن يُحِلَّ عقابًا وخلاصًا على ساكنيه المطرودين لادعاءاتهم بحصتهم في الأرض، وأعرف منهم أنهم قد أنهَوا خدمتي بموجب القوانين الجديدة لتغيبي عن العمل خمسة عشر يومًا متصلين حين فقدت الإحساس بالزمان والمكان والوجدان حزنًا على أولادي.

أبيت الآن في الشارع، أتسوَّل في الطرقات، وأقتات من أكوام القمامة والفُتات، وأدَّخِر ما أشحذه من أجل شراء قطع الحشيش لمضغه في أثناء شُرب كيسٍ من العرقسوس، ومن حينٍ إلى آخرَ تَمُنّ علي ذاكرتي بومضاتٍ من ذكرياتٍ، ولكنها لا تمكث معي سوى سويعاتٍ؛ حتى تفتق ذهني المشتت عن حلٍ لمعضلة السهو والغفلة والنسيان؛ فأضحيت أحمل دائمًا أقلامًا وألوانًا وطباشيرَ، ولا أبْرَح أواصل إعادة كتابة اسمي ما دمت أعْلمه، ولا أزال أمْزج تكراراته بما تجود به عليَّ ذاكرتي من

ذكرياتٍ ومعلوماتٍ ووقائعَ وأحداثٍ من حياتي ومن بقايا التاريخ الذي كنت أعرفه، ولا أنْفَك أُسجِل ذلك على الحوائط والجدران والأسوار والعواميد، على ما تطاله يدي ورؤيتي منها. وكذلك أُدَوِّن على الأرضيات والمماشي والسلالم والدرجات بأريحيةٍ واضطرارٍ، بل رُحت أخُطّ حافِرًا على ممرات الحدائق واستراحات المواقف والقطارات، وكذلك صار دَأبي ودَيْدَني وتكليفي لنفسي إلى أن يَحِلّ الممات.

يلفظني الناس بمجرد رؤيتي، ويطاردني ويسبني الصغار ويُشَبِّهونني بالحيوانات، لأنّ انكفاءتي الأخيرة جعلتني أرْتكِز دائمًا -بينما أمشي أو أجري أو أكتب أو أقتات- على يدَيّ الاثنتين إلى جانب رجلي؛ صِرت أمشي على أربعٍ.

https://www.goodreads.com/book/show/59793054